

الفرج بعد الشدة

[40] فصل لبضع الكتاب: وهو على بن نصر بن بشر. وكما أن الرجاء مادة الصبر والمعين عليه، فكذلك علة الرجاء ومادته حسن الظن بالآخرين الذي لا يجوز أن يخيب، فإنا قد نستقري الكرماء فنجدهم يرفعون من أحسن ظنه بهم، ويخيبون من يخيب أمله فيهم، ويتخرجون من إخفاق رجاء من قصدتهم. فكيف بأكرم الأكرمين الذي لا يعودهم أن بمنح مؤمليه ما يزيد على آمالهم فيه، وأعدل الشواهد بمحبة الله جل جلاله أن يمسك عبده برجائه، وانتظاره الروح من ظله وفنائه. إن الإنسان لا يأتيه الفرج، ولا تدركه النجاة إلا بعد إخفاق أمله في كل ما كان يتوجه فنحوه بأمله ورغبته، وعند انفلاق مطالبه وعجز حيله وحيلته، وتناهى ضره ومحنته، ليكون ذلك باعثا له على صرف رجائه أبدا إلى الله تعالى، وزاجرا له عن تجاوز حسن الظن بالله تعالى. وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال. الفرج والروح في اليقين، والرضا والهم والحزن في الشك والغضب. قال أبان بن ثعلب سمعت أعرابيا يقول: من أفضل آداب الرجال أنه إذا نزلت بأحدهم جائحة استعمل الصبر عليها، وألهم نفسه الرجاء لزوالها حتى كأنه بصبره يعاين الخلاص والغناء توكلأ على الله وحسن ظن به، فمتى لزم هذه الصفة لم يلبث أن يقضى الله حاجته، ويزيل كربته، وينجح طلبته، ومعه دينه وعرضه ومروءته. وكان يقال: الصبور يدرك أحمد الأمور. حكى الأصمعي عن أعرابي قال: خف الشر من موضع الخير، وارج الخير من موضع الشر، فرب حياة سببها طلب الموت، وموت سببه طلب الحياة. وأكثر ما يأتي إلا من ناحية الخوف. قال مؤلف هذا الكتاب: ما أقرب هذا الكلام من قول قطري بن الفجاءة الخارجي (1) ذكره أبو تمام الطائي في كتابه المعروف بالحماسة: لا يركبن أحد إلى الأحجام * يوم الوغى متخوفا لحمام فلقد أرانى للرماح دريئة * من عن يمينى مرة وأمامي

(1) من رؤساء الخوارج.